



الموضوعات الهزلية في كتاب "نزهة النفوس ومضحك العيوس" لعلي بن سودون الشيبغاوي

The Comic Themes in the Book " Nuzhat Al-Nufous wa Mudhik Alaposs" by Ali bin Sudun Al-Yashbagawi

الدكتور محيي الدين خضر (سوريا)

Dr. Mohieddin Khader (Syria)

جامعة دمشق (سوريا)

Damascus University (Syria)

بريد الباحث: muhy.khdr@gmail.com

هاتف الباحث +963945843

الملخص

هذا عرض لكتاب " نزهة النفوس ومضحك العيوس"، لمؤلفه ابن سودون الشيبغاوي المتوفى سنة 868 للهجرة، وهو كتاب يمثل الأدب الشعبي في العصر المملوكي، ويعطي صورةً لذلك العصر من خلال الظواهر التي تحدث عنها، كما أن هذا الكتاب تعبير عن جانب هام من الحياة الاجتماعية، والثقافية للعصر المملوكي.

الكلمات المفتاحية: العصر المملوكي، الشيبغاوي، نزهة النفوس ومضحك العيوس، الأدب الشعبي.

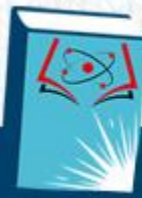
Abstract : It's a review of the book (a stroll of souls and a funny frowning), by Ibn Sudun al-Yishbghawi who died in the year 868 AH., And cultural events of the Mamluk era.

Keywords: the Mamluk era, Al-Yashbagawi, Nuzhat Al-Nufous wa Mudhik Alaposs, popular literature.



مقدمة

ازدهر الأدب الشعبي قبل العصر المملوكي، لكنه بلغ ذروة عالية في هذا العصر، فكان انعكاساً للبنى السياسية، والاجتماعية، والفكرية، حيث بدا العصر المملوكي مفعماً بالتناقضات والمفارقات القاسية على الأصعدة كافة؛ مما ساعد على بروز أدب شعبي متأثر بمعطيات العصر، وما أثارته من قضايا ومشكلات، وما استدعته من مواقف، فظهرت المعالم العامة في تضاعيف الشعر، والحكاية، والأدب العامي؛ الذي توجه رواده «إلى عامة الشعب، وفي ذلك نقلة هامة في أدبنا



العربي، وإن شابه بعض اللحن، ومال إلى العامية، وإلى لغة التخاطب اليومي؛ التي يفهمها عامة الناس، وينفعلون بها»^(*).

ليس الأدب الشعبي قصةً فحسب، بل هو السجل الأدبي والفكري للإنسان الشعبي في تعاطيه مع قضايا المجتمع والسياسة، وتبنى أصحاب هذا الاتجاه اللغة العامية، فنشأ أدب عامي «دخل لغته اللحن، وبعد عن قالب اللغة الفصيحة، والأساليب المولدة واللهجات، وإن كان قد أخذ من هذه وهذه، بل ومن غيرها من اللغات الأجنبية الدخيلة على اللغة الأم، وخصها بلحنه، وسهولة ألفاظه»^(†).

الكاتب وعصره

من أعلام هذا الأدب: أحمد بن عبد الملك العزّازي (ت710هـ)، ومحمد بن عمر المعروف بابن الوكيل (ت716هـ)، وعلي بن سودون الشيبغاوي (ت868هـ).

خلف ابن سودون كتاباً يمثل الأدب الشعبي في العصر المملوكي، ويعطي صورةً لذاك العصر من خلال الظواهر التي تحدّث عنها، وعبر من خلالها عن جانب مهم من الناحية الاجتماعية، والثقافية، وذاك الكتاب هو: «نزهة النفوس ومضحك العبوس».

جمع ابن سودون في كتابه هذا بين الشعر والنثر، فحاز الحُسنين، ونوع في الفنون الأدبية، فخرج كتابه متفرداً في باب، حيث أوقفه المؤلف على ما أنتجته قريحته وحده، دون الاتكاء على أدب غيره.

يعجب الباحث من قول ابن سودون في مقدمة كتابه، حيث وصف نفسه والد ابن زوجته، فقال: «قال كُويتب هذه الأحرف، الفقير إلى الله تعالى، علي بن سودون الشيبغاوي وأبو ابن زوجته أيضاً، غفر الله لهما وله، وجعل معهما في الجنة منزله، بمّيه وكرمه»^(‡).

ثم أخذ ابن سودون يتحدث عن نفسه، فتحدّث عن صغره، ونظمه للشعر، وعُزوفه عنه لكساد سوقه، وعدم وجود الراغبين فيه، مما جعله زاهداً في صناعة الشعر، فقال: «تركت هذه الصناعة لما رأيته كاسدةً، والتسديد في إصلاحها من الخيالات الفاسدة»^(§).

(*) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون الشيبغاوي، تحقيق د. محمود سالم محمد، دار سعد الدين _ دمشق، ط1، 2001 م. (ص5).

(†) الأدب العامي في مصر، أحمد صادق الجمال، الدار القومية، القاهرة، 1966م، (ص72).
* علي بن سودون الجر كسي الشيبغاوي القاهري الدمشقي أبو الحسن، أديب، فكه، نعتة ابن العماد بالإمام العلامة، ولد في القاهرة (810هـ) رحل إلى دمشق، فتعاطى فيها (خيال الظل) وتوفي بها (868هـ). له (قرة الناظر) ومقامتان. الأعلام، خير الدين الزركلي 4 (292-293).

(‡) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص53).

(§) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص54).



بعد ذلك ذكر أنه تزوّج، فأصابه الهمُّ والغم، وحرّ في تأمين قُوت الصِّغار، والقيام بأودهم، فعمل في عِدَّة مِهَنٍ، قائلًا: «فتارة بتعاطي الخياطة أحتَرَفُ، وتارة بالقلم من المداد أَعْتَرَفُ»(**).

ثم عاد المصنّف إلى سيرته الأولى، وجدّد نَظْمَ الشعر، حتى برع فيه، وذاع صِيْتهُ، ولاقى شِعْرُهُ قبولا بين الناس، حتى تجرّأ بعضهم وسَطًا على نَظْمِهِ، فتعرّض أدبُه للاختلاس والسرقة؛ مما دفعه للمبادرة إلى جمعه وتدوينه، وتعلّل الأمر، فكان يكتبُ كيفما اتفق، ويضعُ الجِدَّ بجانب الهزل، فيجمع بين النقيضين، فكان من ذلك كتابه المشار إليه آنفًا.

بعد مدّة عاد ابنُ سُودون إلى كتابه المذكور، وأعاد ترتيبه وفَقَّ منهجٍ جديد، ورؤية مغايرة لما سبق، فجمع المتشابهات في مكانٍ واحد، وميَّز بين الفنون الأدبيّة التي جمعها بين دَفْتي كتابه، فقال: «ثم خَطَرَ لي أن أُميز جِدّه من هَزْلِهِ، وأن أُلْحِقَ كُلَّ نوعٍ بمثله، فبادرْتُ عند ذلك وانتصبتُ لتمييزه»(++).

اعتذر المؤلّف من العثرات التي قد يجدها القارئ لكتابه؛ لأنه صنّفه في زمنٍ حاصره فيه البحث عن المعاش، واكتساب رِزْقٍ أسرته، فكان بأله منشغلاً بهوم الحياة، ومطالبها المتزايدة يوماً بعد يوم. وقد أشار ابنُ سودون إلى ذلك بقوله: «راجياً ممن عَثَرَ فيه على خَلَلٍ أن يُسامحني بتجويزه، فأني ينجو من عثرات ما يهذي به، ومتى يظفر بتنقيح الكلام وتهذيبه؛ مَنْ تضيعُ منه الأوقات في تحصيل الأقوات، ويمنعه الاكتسابُ من أن ينظرَ في كتاب، لا ينال من تصنيفٍ مددًا، ولا يذكر من الإخوان أحداً»(++).

الموضوعات الهزلية في كتابه (نزّهة النفوس ومضحك العبوس)

تمتدُّ الموضوعات الهزلية عند ابنِ سُودون على مساحةٍ كبيرة في كتابه (نزّهة النفوس ومضحك العبوس)، وهي تضمُّ شعراً عابثاً ونثراً ساخرًا، جعله المؤلّف في أبواب مستقلة، ذات

(**) نزّهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون (ص54).

(++) نزّهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون (ص54-55).

(++) نزّهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون (ص55).



مضمون واحد، يضجُّ بالعبث، والغرابة، وليس فيه منطقية في الكتابة أو عرض المسائل، بل هو استعراض مثير للدهشة حول أمور بدهية يدركها القاصي والداني، وكأن المؤلف يعاني من اتساع الأوقات وقلة الأعمال، فأراد أن يملأ فراغ حياته بالكتابة، لكنه أخطأ المورد، وأثار ضجيجاً كبيراً وغباراً كثيفاً، إلا أن النتيجة كانت هباءً منثوراً.

سمّى ابنُ سُودون الشطر الثاني من كتابه (نزهة النفوس) بـ: الهزليات، وقسمه إلى خمسة أبواب، هي:

الباب الأول: القصائد والتصديق.

الباب الثاني: الحكايات الملافيق.

الباب الثالث: الموشحات الهبالية.

الباب الرابع: الدوبيت والجزل والموالية.

الباب الخامس: التحف العجيبة والظُرف الغريبة.

أخيراً عقد فصلاً سمّاه: الفصل الموعود به في أول الكتاب الذي فيه: ما قلّته على طريقة العجم.

وسأقف عند الباب الأول في مقالتي هذه ومن ثم سأتابع الوقوف على هذه الأبواب حتى انتهي من كتاب الهزليات، وكلي لا أطيل على القارئ فينتابه الملل.

القصائد والمفارقة في موضوعات الكتاب

يُعدُّ هذا الباب انعكاساً حقيقياً لحياة ابن سُودون، أو أنه ردُّ فعل لمعاناة الشاعر في واقع الحياة، فقد عانى من الفقر، وحُرم أطايب الطعام، فطفق يصف المأكّل، ويترك العنان لخياله كي يجنح في تصوُّر لذيذ الأطعمة، والتغني بها، وذكر أنواعها، وتعداد أسمائها المختلفة، ولا تسل محروماً إن حدّثك عما يشتهي، أو حاول التخفيف عن معاناته عن طريق تسجيل وثائق عصرية لما كان ينتشر آنذاك من أطعمة متنوّعة.



بدأ المؤلف الباب الأول من موضوعاته الهزلية بخطبة طنانة، ذكر فيها الطعام، وشوقه إليه، فقال: «يا مَنْ يجاهد كيما يشاهد، فوق الموائد، إوزاً ودجاجاً، ما ورديةً ومزاجاً، بقلادة وكلاجاً، إذا لم تجدني هنالك - وأعوذ بالله من ذلك - فلا تنسَ ذكرى عند مغيبى، وابعثْ إليَّ بنصيبى» (§§).

لقد أضحى الطعام موضوعاً شعرياً عند الشعراء الجياع المحرومين، فإن لم يجدوه في الواقع فلا أقل من أن يتغنوا به في أشعارهم حالمون به. وكان ابنُ سُودون أحد أولئك الشعراء الذين رأوا في الطعام هدفاً يسعون إليه، ويتفننون في عرضه ووصفه. يقول ابنُ سُودون:

يا ما أخيلى الموز وهو مُقَشَّرٌ يُزخى عليه القطرُ والعسلولُ
أه يا كنايفُ بالسَّكاكر تُبَاثُ قلبي لفقدك في الهوى مُثْبُولُ (***)

يخاطب الشاعر أنواعاً من الأطعمة، ويُفدِّيها بنفسه، مستخدماً المصطلحات النحوية، ولولا أن ضُرب بالعصا لاستمرَّ يلتهم الطعام، يقول:

يا موزُ يا قَطْرُ زُورا منزلي زورا قلبي يُحبُّكم ما قلْتُ ذا زُورا
يا صحن بالقشطة الحَقْنِي وخُذْ عسلاً ولا تدعْ قلبَ خبزي السُّخْنُ مكسورا
دهري الفداء لوقتٍ مرَّ حينَ حَلَا في منزلٍ لم يزلْ بالأكلِ معمورا
مُدَّ السَّماطُ وما قصَّرتُ فيه فكم حاولتُ أن أدعِ الممدودِ مقصورا
وكم جزمْتُ برفعِ الصَّحنِ مُدَّ عطفوا فيه المشورِ منصوباً ومجرورا
لولا العصي غدتْ بالضربِ فاصلةً ولم أجذُ سبيلاً للزحفِ ميسورا
فقلتُ من خوفها: يا قلبُ دَعْهُ عسى تلقى نصيبك في الفردوسِ موفورا (****)

لعلَّ قارئ هذا الشعر يحسُّ بمفارقة عجيبة، حيث جمع الشاعر بين تصوير مرارة الجوع، والتشوق له، وبين فنِّ الإضحاك من خلال الصورة الشعرية.

(§§) نزهة النفوس ومضحك العيوس، ابن سودون، (ص140).

(***) نزهة النفوس ومضحك العيوس، ابن سودون (ص143).

(****) نزهة النفوس ومضحك العيوس، ابن سودون، (ص152-153).



يُذَكِّرُ الشاعرُ بطفولته، رمز البراءة والصفاء، فحين قال قصيدة يُهَيِّئُ فيها بمولود لأحد أصحابه؛ إذا به يذكر طفولته، ويختار بعض النقاط المهمة كالرضاع، والفطام، والطهور وغير ذلك، ويشير إلى احتفال أهله بولادته، وتقديمهم الحلويات للزائرين. يقول:

وأفـوا يـهـنـؤنـا بمولودٍ سـما	قـمـرَ السـمـاءِ وفـاقـه تـجـيـلا
الله يحفظـه ويحفظـ طأهـلـه	ويـقـرُّ أعـيـنـهـم بـذاك طـويـلا
ويـرـيـهـم بـرـضـاعـه وفـطـامـه	وطـهـورـه وزواجـه المـأمـولا
وحـزـيـنـكـم يـا نـاسـ يـومـ ولادـتي	ما ز غـرـط النـسـوان فيـه قـليـلا
وتـزـلـبـوا وتـعـسـلـوا تـفـسـيـره	أكـلـوا زلايـيـة كـذا عـنـأولـا
وسـقـتـن أـمـي فـي رـضـاعـي بـزها	وأكـلـت إذ طـلـع السـنـين بـليـلا
وعـرـفـت حـين كـبـرـت أن أـبـي أـبـي	وأنا ابـن أـمـي بـكـرة وأصـيـلا(***)

هذه المعارف التي أدركها الشاعر مما لا يحتاج إلى ذكرها في الشعر، فهي من الأمور البسيطة التي لا يلتفت إليها؛ لأنها واضحة كل الوضوح، ومعرفتها كالشمس لا تحتاج إلى تصريح، أما الاكتشاف الأكبر فهو معرفة الشاعر أن أمه هي أمه، وأن أباه هو أبوه.

زاد تحامق ابن سودون حين وصف زواجه، فبدأ القصيدة وهو جاد، أورد نعتاً لزوجته أقل ما يقال فيها أنها بعيدة عن الواقع، فهي قد جمعت عيوب كل النساء ومساوئهن، ويبدو ذلك واضحاً في قوله:

حل السـرور بهذا العـقد مـبـتـدرا	ونـجـم طالعـه بالسـعـد قد ظهـرا
والطير من فرحها في نوحها صدحت	بكل عود عليه لا ترى وترا
وكنت عند زواجي قد وصلت إلى	حد الأشد وعقلي في الورى اشتها
هذا وعقل عروسي كان أصغر من	عقلي ولكن حوث في عمرها كبرا
تعص لا أختشي من عجزها ألماً	إذ نظمت أسنانها في ثغرها انتثرا

(***). نزعة النفوس ومضحك العيوس، ابن سودون (ص156).



في لونها نمشٌ في أذنّها طرشٌ
في بطنها بعجٌ في رجلها عرجٌ
في ظهرها حدبٌ في نحرها كببٌ
تقول قدي يحاكي الغصن منطوياً
في عينها عمشٌ للجفن قد سترأ
في كفها فلجٌ ما ضرّ لو كسيرا
في عمرها نوبٌ كم قد رأيت عيرا
فقلت يحكيه لوما قد وانتشرا
أواؤه لو حاشها موت لها قبراً (999)

هذا الوصف يدلُّ على تحامق الشاعر، ولهوه، وعبثه، ولاسيما أنه كان رجلاً بلغ أشده، فمن الذي أجبره على الاقتران بمثل هذه المرأة القبيحة؟! إنه التحامق الذي أراده الشاعر ليثير هزأً، وسخرية، واشمئزازاً.

كما حوى الباب الأول من هزليات ابن سودون على مجموعة عبثية، أورد فيها بدهيات يعرفها الجهلة، ويدركها أطفال الرّياض، لأنها مُسلّاتٌ عادية ذائعة الصيت، كقوله:

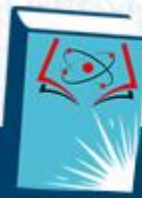
الناس قد خلّفوا ناساً من القدم
إذا مشى واحدٌ منهم لحاجته
خيولهم أبداً تمشي بأرجلها
في البرّ والبحر لا ينسون أكلهم
ومن مشى منهم لم يخلُ من قدم
فظهره من ورا والوجه من أمم
لكنها لم تذق أكلاً بغير فم
كلا ولا شربهم في الجِلّ والحرم (****)

ولا جديد في هذه الأبيات، بيد أنها تدفع القارئ أو السامع إلى نعت الشاعر بالعبثية، وأنه قد توازنه حين جعل من نفسه غافلاً، متحامقاً، مُرّداً للأمور المعروفة.

ومثل هذا كثيرٌ عند الشاعر، كقوله:

عجبٌ هذا هذا عجبٌ
ولهاف في بزها لـين
لا تغضب يوماً إن شئت
بقرة حمرا ولهاف ذنبٌ
يبعدو للناس إذا حلبوا
والناس إذا شئتموا غصبوا

(999) نزّهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص160-161).
(****) نزّهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص156-157).



حزري بزري ماذا السبب؟

لا بُدَّ لهذا من سبب

والسمر إذا عطشوا شربوا

البيض إذا جاعوا أكلوا

والورقة ليس لها قتب^(****)

الناقصة لا منقار لها

الذي أراه أن مثل هذه الأقوال لا تصدر إلا عن أحمق، أو شخص وقع تحت تأثير الحشيش. ولم يكن ابن سودون بعيداً عن هذا، فهو مدمن للمخدرات، وداع للاستزادة منها. يقول:

مشكاح^(****) أنت القاتل المقتول

يا قاتلاً لحشيشة فقتلت يا

واسمك تكثر فلا يفيد قليلاً

إن شئت تحييئك أحسن قتلاً

كم عاش فيها بالهنا مسطول^(§§§§)

مهما انسلت بها فعيشك طيب

مثل هذا لا يصدر عن عاقل، متزن، بل عن رجل مصاب باضطراب عقلي، وهو واع لعصابه؛ لذا نراه ساخراً من نفسه ومن الآخرين، مصاباً بالأرق الذهني، ويحاول المرة تلو المرة أن يتحدث عن مأساته، ويعرضها للناس؛ ليثير إشفاقهم وحنوهم، لكنه أحس بالإخفاق، فمال إلى الاعتداء على الجانب الجاد في نفسه، وفجر أبعاد الجانب الهازل، فبدأ مُرهقاً، عاجزاً عن الإتيان بشيء يستحق أن يفعله المشهورون والعابرة، وكل الذي استطاع أن يسجله هو جملة من الآثار الشعرية والنثرية، نذت عن المألوف، وشردت عن الاتزان.

إن التحامق والتبالة لا يشكّل تياراً شعرياً، ولا يكون اتجاهًا عبثياً اجتماعياً، إذ ما الفائدة منه، وهو في أحسن حالاته يُنقّر الناس منه، لأنه لا غاية له سوى انعدام المعنى، وسخف التفكير. وأعجب من الباحث محمد رجب النجار حين يقول: «هذا تيار آخر من تيارات الرفض والتمرد الاجتماعي، شاع في العصر المملوكي، وبلغ أوجه عند ابن سودون، وهو تيار قوامه التحامق، والعبث، والتهريج، وافتعال البطولات الزائفة، وإبداء الدهشة دائماً من اللا شيء، ويعتمد إلى إثارة ضجة كبرى حولها»^(*****).

^(****) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص 146-147).

^(****) «مشكاح»: أبله، تافه.

^(§§§§) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون، (ص 143).

^(*****) مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد 14، عدد 1، 1983م، مقال لمحمد رجب النجار، بعنوان: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، (ص 254).



ثم إنَّ تحامقَ شاعرٍ أو اثنان أو ثلاثة، فإنهم لا يشكّلون تياراً جماعياً له منهجه، وسماته، وأبعاده.

في كلّ عصرٍ يبرزُ مثلُ ابنِ سُودون، ويكونُ أضحوكةً للآخرين، وأحياناً مثارَ شفقةٍ، فلا يُلتفتُ إليه؛ لأنَّ أثره يكونُ بسيطاً، لا يكادُ يُذكر.